



## كنا في العراق رحلة إلى بلاد التاريخ والجغرافيا الممزقة

دخلنا بوابة فندق الرشيد الشهير في الساعة الحادية عشرة ليلاً. كان هناك بضعة رجال تكفي لمحة من وجوههم كي يعلم المرء أنهم رجال أمن. صعد واحد منهم باب الحافلة وأدار عينيه بخجل. تنحنح وأنشأ خطاب الترحيب، الذي سنلمس وجوده الدائم على ألسنة العراقيين أينما ذهبنا: «هلاً... هلاً عيوني. هلاً وللاً... هلاً بالإخوة السوريين». فيما بعد سنعلم أن الأميركيين ليسوا وحدهم الذين استهدفوا الفندق وإنما جرى فيه تفجيران. وسنرى بعد المدخل مباشرة معرضاً دائماً يتضمن صوراً فوتوغرافية لشهداء الفندق، منها صورة لفتاة حلوة تبتسم للكاميرا بروح عذبة.

كانت أمتعتنا ماتزال على الرصيف، عندما استعجلنا الدخول تشوقاً للدعس على صورة بوش التي تحتل موقعاً لا يمكن تجنُّبه. وكنا قد تداولنا عبر الطريق الطويل نقاشاتٍ عن جدوى وطء صورة من رخام للرجل الذي أذاق العراق الويل: أليس من الأجدى أن يسلك العراقي سلوكاً يدخله إلى عالم اليوم، حتى لو كان عالماً من نفاق أكثر منه عالم صدق وأخلاقيات؟

بوش الأب يكثر عن أسنان دراكولا في المرمر. والدم الأحمر يغطي جانبي فمه. أنا ممن يؤمنون أن التعقل سلوك لا بد منه لمن يريد انتزاع حق، ومع ذلك دُست على صورة بوش بتشف غريباً! شعرت وأنا أضع قدمي على وجهه في المرمر أنني لا أخطئ في شيء، وأتني أمارس نوعاً من التعبير بالحذاء في لحظة لا تُعاد. في اليوم التالي سأراقب رجلاً يابانياً يباعد قدميه بطريقة مضحكة وهو يخطو كي لا يدوس على وجه بوش. فوجدتني فيما بعد مدفوعاً، ليس من دون شعور باللاجدوى، إلى إثقال قدمي نكايَةً كلما مررتُ عبر الباب.

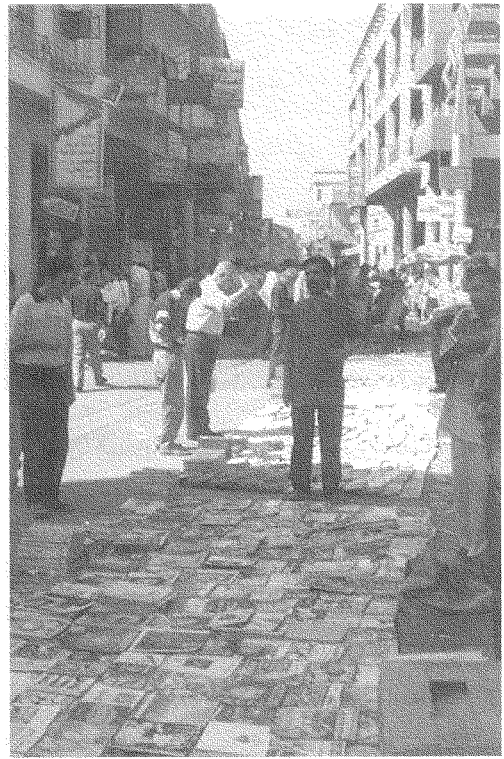
في الصباح كان لا بد من حضور حفل افتتاح المؤتمر ودفع رسوم التسجيل، على الرغم من أن دافع سفرنا الأول - نحن السبعين طبيياً سورياً - كان على الغالب رؤية العراق. أليس طبيعياً أن يحدث هذا بعد قطيعة دامت ثلاثين عاماً؟ لا حَجَلْ إذن في القول إن سبب سفرنا إلى مؤتمر علمي لم يكن علمياً.

كالعادة دخل وزير الصحة العراقي بتياب عسكرية. أنتفع في شيء ثياب تدل على عسكرة الحكومة بينما، مثلاً، شارون بتيابه المدنية يعسكر على دماء الفلسطينيين؟ مَنْ رأى طارق عزيز يتحدث وهو يلبس البذلة العسكرية؟ أكانت تليق بحديثه الذي كثيراً ما رغب بوضوح في أن يعطيه طابع الثقافة العميقة؟ وَمَنْ رأى طه ياسين رمضان الذي يحب كما يبدو أن تكون بذلته ضيقة على الرغم من أن حديثه بات يتسم شيئاً فشيئاً بالوسع والراحة؟ لكن أليس العراق في حالة حرب؟ أفلا يحق له إذن ممارسة سلوك رمزي كهذا؟ في قاعة المؤتمر، التي بدت لنا أعظم من أن تكون في بلد محاصر، كانت ثمة مجموعة من الأطفال لا تخطئ العين بؤساً في أذيتهم، ولكنهم كانوا في ثياب احتفالية. في عيونهم إلمحات تردُّ ودهشة. سرعان ما علمنا أنهم تلاميذ مدرسة للصم والبكم.

بدأ الاحتفال، وأخذت السيِّدة التي ترعاهم مكاناً في المرَب بين الجمهور. شرعتُ بالإيماء مع الموسيقى: موسيقى لصمِّ عيونَ الأطفال معلقةٌ بالإشارات: طيرانٌ وتطبيقٌ بالأذرع، علاماتٌ ضمُّ نحو الجوانح في الداخل، علاماتٌ برفرفة الشفاه وبالجدسد رغبةً في الكلام، ثم في النهاية إلحاحٌ في الإشارات المتكررة نحو صورة... لقبّة الصخرة المقدسيّة.

مُستبطناً الدقائق، كنتُ أتحرقُ رغبةً في انتهاء الشكليات، كي أزوغَ هارباً إلى قلب بغداد، بنية الذهاب أولاً إلى شارع المتنبّي. في الاستراحة، ولأنني لا أعرف عنوانَ أيِّ مثقّف عراقيّ، سألتُ أحد المنظِّمين عن عدد منهم، فلم أحظُ سوى بعنوان الشاعر حميد سعيد، الذي علّمتُ أنّه كبيرٌ آمناء بيت الحكمة. أُعترف أنّ الاصطلاح هالني: «كبيرٌ آمناء بيت الحكمة». لكنّي بتّ أملك عنواناً على الأقلّ.

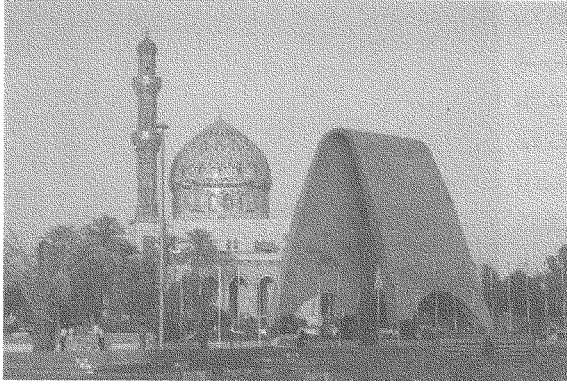
سياراتُ الأجرة في بغداد كثيرةٌ كثرة النمل، وسائقوها هم الشريحة التي سنحتكُ بها أكثر من غيرها. إنّما لا يُعَدُّ أن تباعثكُ سيّارةً خاصةً تزامم للفوز في اقتناصك. نسبة عالية من السائقين حملةٌ شهاداتٍ عليا مال بهم الزمانُ مثلما مال بالعراق. بادرتُ السائقَ بتحيّة تعمّدتُ أن تكون بلهجة سورويّة واضحة، فأنشأ السائقُ على الفور مطوّلة الترحيب التي سنعتها. السائقُ خريجٌ رياضيات، وأمثاله كثيرٌ يقتلهم الحياءُ كلّما أخرجنا النقودَ لدفع الأجرة. فيما بعد سنشُرع في الهرب بعد إلقاء النقود على المقعد. طبعاً لم يكن جميع السائقين بمثل هذه الروح: فالأولاد في البيت ينتظرون اللقمة.



شارع المتنبّي يعكس جزءاً من حال الثقافة العراقيّة، ومن حال المثقّفين العراقيّين. مكتباتُ لها طابعٌ أشبهُ بدكاكين البقالة في الأسواق العربيّة القديمة، تغصُّ بالكتب، جلُّها قديمٌ، والحديثُ منها تراثيٌّ وتاريخيٌّ. على الأرصفة باعةٌ كتب وأقراص كمبيوتر. أخذتُ الرصيفَ ذهاباً وإياباً وأنا أسألُ عن الطبعة غير المهدية لـ «ألف ليلة وليلة»، من طباعة مطبعة بولاق المصريّة وتصوير دار النهضة في بغداد، فأتلقّى إجابةً واحدة: «ما كوا!» ثم شرعتُ في الدخول إلى المكتباتِ واحدةً واحدةً، فيرحبُ بي على الدوام فور أن تلتقطُ لهجتي. هنا أيضاً لم أستطع الحصولُ سوى على هاتفني لطفية الدليمي وماجد السامرائي، رغم أنّني سألتُ عن كثيرين. قال رجلٌ يفتشُ في الكتب مثلي حين سمعني أسألُ عن لطفية الدليمي: «هذي كاتبة شيوعيّة». ولما رأى أنّني لم أرتكس، أعاد: «... كاتبة شيوعيّة» مصراً على النظر في عينيّ. قلتُ: «وإذا كان؟!» لاحقاً عندما هتفتُ للطفية قلتُ مداعباً إنّ رجلاً قال كذا وكذا، فارتبكتُ وهي تقول: «لا... ولألا...» فغيّرتُ الحديثَ لاثماً نفسي على افتتاح أول حديثِ هاتفني بنميّة كهذه.

صاحبُ مكتبة أربعينيّ العمر لاحظَ لهجتي وحركتي بين المكتبات. دعاني إلى كأس شاي بطريقة تُظهر رغبةً في الحديث. تعارفنا سريعاً. ولأنّ كنيته كانت ذات جرس تاريخي - «الجنّابي» - فقد مازحتهُ عن درجة القرابة التي تربطه بأبي سعيد الجنّابي وعمّاً إذا كانت فرسه لاتزال مقيّدةً إلى جانب قبره! ذاك المزاح كان مفتاح الدخول في حديث دام طويلاً، اقتنيتُ خلاله بضعة كتب، وعلّمتُ خلاله أيضاً أنّه كان كاتبَ قصّة وأنّه ترك الكتابة احتجاجاً. لن أنسى الغصّة التي تكلم بها وهو يشكو من إغلاق الصفحات الثقافيّة في الجرائد العراقيّة على أسماء قلّما كانت جديرة، أمّا أكثرها فمُتسلِّقٌ تسلِّقُ النبات الطفيليّ. عند الباب أهداني كتاباً لـ «الجنّابي» آخر. مازحتهُ مواسياً: «كانكم، آل الجنّابي، لم يَكْفِكُم التاريخ، فأردتم الاستيلاء على الثقافة أيضاً.»

كنا بدءاً من الحدود قد شممنا رائحةً تعطش العراقيّين إلى علاقة اقتصادية مع سورية، وهو أمر مفهوم. لكنّ العطش الأكبر، بلُ السُّهاف الذي لا يرتوي، كان في رغبتهم في علاقةٍ أعلى إنسانياً. إنّما الرغائب شيءٌ وواقع الحال شيءٌ آخر. فقد صرفنا بين النقطة الحدوديّة السوريّة والنقطة العراقيّة أربع ساعات، ثلاثاً منها عند إخواننا العراقيّين. هذه الفترة الدهريّة في الانتظار لم ينقصُ منها فرحُ رجال الأمن والجمارك بالعلاقة المستجدة: أظنّهم كانوا فرحين ومتحمّسين بسبب استئناف وظيفتهم بعد طول قعود: «إنّه العمل!» على الأشبار الأخيرة من الأرض السوريّة يقوم نُصبُ بالطول الكامل للرئيس الراحل حافظ الأسد، بابتسامته الخفيفة الشهيرة. وعلى الأشبار الأولى من الأرض العراقيّة يقوم نُصبُ آخر بالطول الكامل أيضاً للرئيس صدام حسين بلامحه الصارمة. كلاهما له واجهة تطلُّ من الجهة الأخرى على أرض بلاده. النُصبان يقومان على قاعدتين ترتفعان مترين، ويقيس كلُّ منهما خمسة أمتار ارتفاعاً بعرض ثلاثة أمتار تقريباً. سألتُ أحد رجال أمننا: «مَنْ الذي بنى نُصبَ رئيسه أولاً، نحن أم هم؟» حدجني بنظرة تستطلع ما وراء السؤال، ثم غمغم: «أنا جديدٌ هنا!»



في إحدى مراحل تخليص أوراقنا كان موظفٍ عراقيٍّ وحيد يقوم بعمل ثقيل: يكسّر الجوازات. يتناولها واحدًا واحدًا. ينظر إلى الاسم والمهنة وصفحة التأشيرة. يكتب الاسم والمهنة وسبب الزيارة على الورق، ثم يُدخله إلى الكمبيوتر. يُختم الجواز بختم تبين لنا أنّه خاصّ بعام ٢٠٠١. يُصحّح رقمّ الأحاد من ١ إلى ٢ يدويًا. يُزيح الجواز إلى الطرف الثاني. ولما انتهى، نادانا بأسمائنا واحدًا واحدًا.

❖ ❖ ❖

فور صعودنا الحافلة مُتجهين إلى قلب الأرض العراقية، انقسمنا بين مَنْ يريد المرورَ بمدينة الرمادي، ومُسْتعجلين لا يريدون ذلك. الفرق حاسمٌ هنا بين طريقٍ عاديٍّ وطريقٍ سريعٍ. شيئًا فشيئًا علمنا أنّ أحدنا

كان قد هتف لأقاربه الذين يسكنون مدينة الرمادي، وأنّه يحمل هدايا لهم. حَسَمَ وجودُ الهدايا النقاشَ لصالح المرور بالمدينة. وأظننا جميعًا وجدنا لياقةً طريفةً في أن يحمل واحدٌ منّا هدايا لأفرادٍ عراقيين لا نعرفهم نحن ولا صاحبُ الهدايا يعرفهم. وعندما علمنا أنّ البيت الذي سنمرّ به يقع أمام فرع حزب البعث في الرمادي انطلقت التعليقات والنكات التي تصبّ في معنى واحد: «أول ما أراهم هجم قُتل!!» ليس من غرابة هنا. فلفظُ اسم «العراق» مجردُ لفظ، كان في نفوسنا مشكلةً أمنيةً قبل فترة يسيرة. يتداول السوريون نكتة معبّرة عن رجل تقدّم لعضوية حزب البعث، ومن الأسئلة التي يُفحص بها طالبُ الانتساب سئل: «ما يحدّ سوربةً من الشرق؟» صمت الرجلُ صمتًا عميقًا. ورغم محاولات الإيحاء والتقريب والمساعدة ظلّ صامتًا. وهو ما دفع بأحد أعضاء اللجنة الفاحصة إلى الاستنكار: «غريب! ألا تعرف أنّ العراق يحدّ سوربةً من الشرق؟! فاستبشر المفحوص متخلصًا من مأزقه صارخًا: «أنت الذي قلت ذلك، أنت الذي قلت ذلك!»

كانوا في انتظارنا: شيخ كبير في السنّ يُرحّب بصوتٍ عالٍ، ومجموعةٌ من الشبان تردّد الترحيب بصوتٍ أخفض، والقبلات لنا جميعًا. دخلنا إلى مضافةٍ وسيدة مفروشة بالسجاد، وحول الجدران اصطفتُ مقاعد. البيت من الخارج ومن الداخل يوحي بالغنى. أوّل الضيافة ماءً ممزوج بالهيل، ثمّ الشاي، فالقهوة. لاحظ مضيفنا أنّنا نتهاشم برغبتنا في المغادرة. فقال بصوت مرتفع: «غداؤكم، الذي أصبح عشاءً، جاهز.» تسابقت بعضنا ممن لا يُعرف عادات الضيافة القبليّة بالجهر: «لسنا جائعين... تغدينا في استراحة.» ظلّ الرجل هادئًا وهو يلفظ مازحًا: «ذوقوا طعامنا أولًا.» ثمّ إنّنا لن نسّمح بحمله معكم!« وقوفًا إلى جنب طاولة مديدة عامرة، تناولنا - نحن الأفراد الستّة والعشرين - طعامًا لذيذًا، ناسين أنّنا أكلنا منذ ساعتين وأننا صرّحنا بذلك.

في الحادية عشرة كنا في باحة الفندق، بعد أن اجتزنا جزءًا من بغداد نتأمّل اللافتات والأضواء والأبنية التي لاحظنا مبكرين جرأة مصمّمها في دفع الشرفات إلى الخارج وكأنّها تريد أخذَ حيزٍ إضافيٍّ: ألماذا علاقةً برغبة العراقيين في ميناء يُطلّ على الخليج؟ ألماذا علاقةً بالذريعة العراقية في الكويت؟ أوتتوقّ الذات العراقية إلى الامتداد؟ من قرب شارع المتنبي أخذتُ سيارَةَ إلى بيت الحكمة، وعلى الفور شرعتُ في الحديث مع السائق. هل قلت من قبل إنّ السائقين كانوا محاورينا الأكثر جرأةً؟ سألته عن دخله، عن عائلته وعدد أولاده، عن التعليم، عن الأمن في البلاد. هو الآخر مهندس يعمل عمليين.

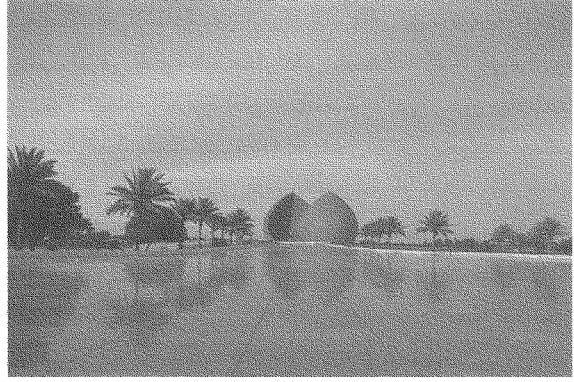
❖ ❖ ❖

بيت الحكمة مثلما يراه المرء في التلفزيون: واجهة تنطق بهيبة التاريخ. بابٌ خشبيّ عتيق وضخم. بلاطٌ حديث لا ينسجم والإحساس التليد بثقل التاريخ. سألت رجلاً خلف طاولة في غرفة سقّفها العالي يبرز عدم الاتّساق بين الضخامة والفخامة في الجدران والنوافذ من جهة، والضالّة في المكتب وفي حجم ذلك الرجل من جهة ثانية: «أنا كاتب وطبيبٌ سوريّ. هل لي أن أقابل كبير الأمناء الشاعر حميد سعيد؟» نهض الرجل بخفةٍ مرحّبًا. هتف لأحد ما معلناً وجودي بكلماتي ذاتها، وانتظر قليلاً ليُعلمني أنّه في اجتماعٍ وأنّه سيرسل إليّ مدير مكتبه، الذي حضر سريعًا وأبلغني بكلمات موزونة كما لو أنّه اعتاد لفظها كثيرًا: «الأستاذ حميد مشغولٌ جدًا، ويتمنّى عليّ أن أقبل - إذا سمح وقتي - موعدًا عند الساعة السادسة مساء الغد.» وعرض عليّ مرافقته للتعرف على نشاط بيت الحكمة، فتبعتّه وهو يدلي ببيان المعلومات: «هذا جدول مواعيد النشاط. محاضرات. حوارات. أمسيات. بيت الحكمة كان قصرًا لابنة الخليفة العبّاسي. ثمّ حوّل الأتراك إسطنبولًا للخيل. وبعد ذلك اتخذها البريطانيون مصنعًا للسيارات.» فيما بعد عندما سأقابل حميد سعيد سيُلفظ مكرّرًا تحت إحساسه بدهشتي: «نحن هنا في بيت الحكمة. هايد پارك بغداد. نعم هايد پارك بغداد!»

❖ ❖ ❖

... مساء اليوم التالي وصلتُ متأخرًا عن مواعي نصف ساعة، فالمسافات في بغداد مسافاتٌ سفرٍ حقيقيّ. فور دخولي رافقني رجلٌ إلى باب غرفة في الطابق الثاني. حميد سعيد خلف المكتب. أعرف صورته من الصحف. معه رجلٌ تذكرت فورًا أنّه هو الذي كان يعلّق على البرنامج الذي أثار السعوديين عبر الفضائية العراقية. تعارفنا بوجّه ظاهر. كان الرجل هو الدكتور قيس محمد نوري

الذي سألمس منه رقة ولطفًا لم يكن يوحي بهما برنامجه الذي تابعه السوريون بنوع من الاهتمام غير معزول عن الهاجس السوري الأبدى في تحسس أحوال الأمة. شت بنا الحديث هنا وهناك: من علي الجندي، إلى ممدوح عدوان، فبرهان غليون الذي خص بنوع من التلميح الغامض، وانتهاءً بمحمد الماغوط الذي علمت هناك - في بغداد - أنه مريض يكاد لا يرى بعينه. عرّجنا على حال الصحافة السورية والعراقية. سُئلت عن صحيفة علي فرزت، وكانت متوقفةً آنذاك، فقلت إنها توقفت بسبب عزم الحكومة على توزيعها من قبل مؤسسة التوزيع حصراً، وهذا يحدث من أرباح صاحبها وربما من عمله أيضاً. تحمس الدكتور قيس في كلامه: «عندنا مؤسسة تقوم



بالعمل ذاته. أنا أسميها: المؤسسة الوطنية للتوزيع لأنها لا تقوم إلا بالتوزيع حصراً!« أخيراً وصل الحديث إلى بيت الحكمة، فنطق كبير الأمانة بتلك الجملة التي أدهشتني وبدت لي خارج مألوف معرفتي عن العراق: «نحن هنا في بيت الحكمة... هايد پارک بغداد.» أعادها مرتين وهو يرى التعبير الذي ارتسم على وجهي، مُضيفاً: «حتى الشيوعيون يأتون للمناقشة وعرض أفكارهم!» لا بد أن دهشتي كانت مضاعفةً - مرةً للهايد پارک، ومرةً للشيوعيين. وكان حديثي، الذي ذهب إلى نقد خفيف للصحافة العراقية التي كنت أطلع عليها عبر الانترنت، قد فتح باباً ذا شجون، إذ سمعتُ منهما نماً للإعلام العراقي أظهر مدى إدراكهما كمثقفين كبيرين، ومفاده أن «ليس هكذا ثورداً الإبل»، مع إحياء بأن الأمور ستؤول إلى الأفضل، وأنهم - في بيت الحكمة مثلاً - مخلوون من الرئاسة مباشرةً. أهديتُهما كتاباً. وأهدياني مجلاتٍ متخصصةً أعلمانني أن كلاً منها تطبع ألفي نسخة. وافترقتنا افتراق الذين لن يلتقوا في القريب العاجل - لكن لا: فللعراقيين طريقة في الاحتفاء وطريقة ومفاجئة.



برج صدام برج عال كما هي الأبراج. في قمته مطعم. فوجئنا أن التصوير فيه ممنوع. أيعقل هذا؟! فالأقمار الصناعية تصور مواقع أصغر! ولكن ما إن علم رجال الأمن أننا سوريون حتى سمحوا لنا بالتقاط الصور. ومن أعلى البرج شاهدنا بغداد أفاقاً من النخيل والشوارع والأبنية. إن العراق بلد راسخ ثقيل. المقامات الشيعة تحفة من التحف في فخامتها وضخامتها وتزيينها الباهر، لكن أزحامها ونقص التنظيم فيها أمران مزعجان. الإيرانيون موجودون بكثرة فيها، بل والسعوديون أيضاً. أتصدقون؟

بقدر ما اتسعت السيارة ركبنا، على أن يلحقنا آخرون. والهدف: شارع أبو نواس. ما هي إلا بضعة كلمات متبادلة مع السائق حتى علم أننا نريد التعرف على الوجبة العراقية: السمك المسكوف. والأهم أننا نتحرق شوقاً إلى رؤية شارع أبو نواس. فإذا به ينشئ هجاءً مريزاً للحياة البغدادية: «الشارع الذي سمعتم عنه مات. لم يعد شارع الفرح والمرح واللذة.» شدنا الأسي في صوته إلى الإصغاء. «كانت أياماً، وكان الشباب المحب للحياة والشباب المثقف المتحرر يأتون إلى شارع أبو نواس ليقضوا ما بعد الظهر، وربما امتد زمن المتعة إلى ما بعد منتصف الليل، شرباً وأكلًا وضحكاً وسياسةً وثقافةً. جيلنا تمتع ولعب وعرف. لكن ما يحز في النفس هو جيل الشباب الآن. أنا أشفق على حاله. حياة فقيرة ومتع قليلة. من قبل كان شارع أبو نواس، هذا الممتد طولاً، يغص بالبارات والمطاعم والشباب، أما الآن... أين ذهب ذلك كله؟! تساءلنا. «ذهبت به الحروب وال...» الـ «ماذا؟» تساءلنا. «المواقع الرئاسية» قال، وهو يُشير إلى قصر ضخم يُشيد على الجانب الآخر من دجلة. وبحسرة قال: «نحن العراقيين نسينا الفرح.»



مساء اليوم الثاني كان الشاعر السوري صالح الرحّال قد سبقني في النزول إلى صالة عشتار. هنا التاريخ في كل مكان، حيثما ذهبت وحيثما التفت تجد للتاريخ بصمةً عبر اسم أو أبدا. وكانت هناك لطفية الدليمي وماجد السامرائي. أعرّفهما أيضاً من صورهما في الجرائد. وكان رجل آخر من دائرة الشؤون الثقافية التابعة لوزارة الثقافة. سيُفاجئنا الرجل بدعوة إلى سهرة باسم الشاعر حميد سعيد. «يا إلهي! يا لسحر رابطة الكتابة! من قال إننا سنجتمع بلا سابق معرفة!» ذلك هو ما لفظته لطفية بسعادة سنعلم أنها تعكس غبطة المحاصرين إذ يجدون من يعرفهم ويتحسس أحوالهم من بُعد.

كنت سأقبلهم فور مدّ يدي للمصافحة، لولا تلك المسافة التي تنطبع على ملامح العراقي وهو يتعرف على الآخرين: مزيج من الإقبال والكف، لكن ليس بغير ابتسام عريضة ورشقة من تأهيل وترحيب. دقائق وإذا بنا نغوص في نقاش عن حال الثقافة العربية بالكلمات التي يمكن أن ترد في نقاش على طاولة في مقهى الروضة في دمشق، لا فرق... إلا من تلك الشكوى الدفينة عن نقص الكتب والدوريات، وإلا من سلوك يُبرز رغبة في الحديث المتصل ونقصاً في الإصغاء. فثمة رغبة عارمة في التعبير عن الذات، تبررها العزلة والحصار: وهذا هو التفسير المحتمل.

بحبٍ وبلا كلل تحدث ماجد عن مثقفين عرب وسوريين يعرفهم، عن السياسة، عن الثقافة، عن العولمة الثقافية، عن... وعن... مُبدياً ثقافةً واسعةً، لكنه أبداً كان يُؤول إلى خلاصات سياسية لا يمكن فهمها إلا في ضوء الحصار على بلاده. اختلفنا على مفهوم «الغرب» كمنتج للثقافة في عصرنا. كان يريد، تساعده لطفية، أن يُبرز دوراً للثقافة العربية أكبر مما تصوّره لدي. حين ودّعناهما همستُ لطفيةً بأنّ في كتابها الذي أهدتنا إيّاه قصّةً كانت قد رُفضت. وممن؟ من ماجد نفسه (!) لصفحة ثقافية يحزّها. وقالت بحزن إنّها أدخلت رفضه في نسج القصة، وأكملتها بثوب جديد، ثم نشرتها في هذا الكتاب.

غرفة صغيرة تنفتح على مدخل في قلب زقاق يتصل بسوق كبيرة، ومن الجهة الثانية تنفتح على شقّة غير مسكونة على الأرجح. الترحيب مشفوع بابتسامات مُحرجة سنعرف أنّها نوعٌ من اعتذار عن سهرة لمثقفين في «الخفاء» - فالكحول ممنوعٌ. سيقول لنا صاحبٌ محلّ لبنانيّ الأصل متزوّجٌ من عراقية: «الكحول ممنوع في المحلات العامة لأنّ الرئيس، الله يحفظه، يقود حملةً إيمانية». في مثل هذا الكلام لا يمكنك أن تعرف إن كان الكلام نوعاً من الاحتجاج أم هو نقلٌ معلومةٍ لا غير؛ فالوجود ورتة الحروف هنا تكتسب حياديةً عجيبةً. لكنّ المواطنين العاديين سيؤيدون هذا المنع بكلماتٍ مدعومةٍ بآيات وأحاديث.

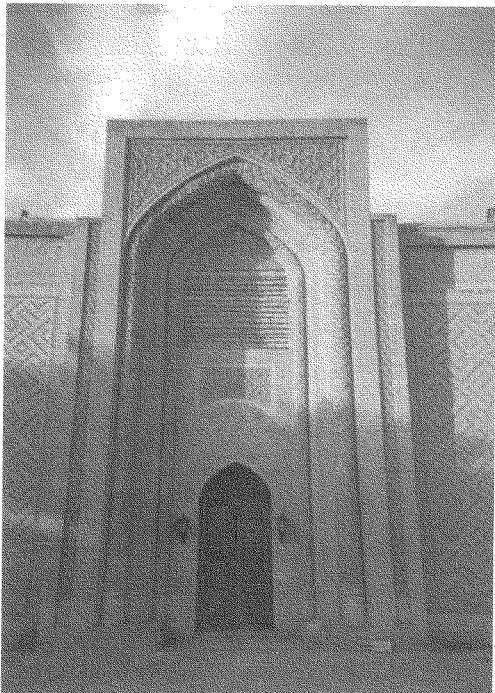
حميد سعيد جاء متأخراً. مائدة خليطة من مرّة سورية ولبنانية وعراقية. والحديث حديثٌ مجاملاتٍ وأسئلةٌ عن أخبار المثقفين والكتاب السوريين، حديثٌ أخذ وقتاً ما كان ليأخذه لولا حرج الجلسة الحميمة التي يُفترض بها أن تريح الحواجز. لكنّ الحواجز موجودةٌ في النفوس، ومكرّسةً بقطيعة ثلاثين سنة. الغريب أنّنا وجدنا العراقيين العاديين أصحاب نكتة، بينما كان المثقفون خالين منها، إذ بعد عدّة نكتٍ منّا مختارٍ بعناية على تخوم السياسة والجنس تبين لنا أنّ الاستجابة متحفظة. وعلى العكس بدت وجوه مُضيفينا مهتمّة عندما بدأ الحديث جدياً عن حلقة «الاتجاه المعاكس» التي بثتها قناة الشباب العراقية على الهواء مباشرةً نقلاً عن قناة الجزيرة. الصحون اللاقطة للفضائيات ممنوعة في العراق. يُحبس من ضُبط يمتلك دُشاً ستة أشهر مع غرامة تبلغ ثلاثة أضعاف ثمن الجهاز. كان البرنامج ملاكمةً كلاميةً بين مصريّ وكويتي، والموضوع المتناول: الكويت والعراق. تعليقاً عليه، باغتتنا حميد سعيد بنظرة رزينة سياسياً: «إنّه حوار لا حوار فيه، وإساعته أكبر بكثير من فائدته». لكنه لم يخف سروره من غلطة الكويتي في قوله: «طرّ على الأمة العربية!»

السهرة تتقدّم والكلام يذهب ويأتي، ولكنه يعود دوماً إلى النافذة الوحيدة تقريباً التي يطلّ منها العراق إعلامياً: الفضائيات. سألوا، وانتبهوا جيداً إلى أجوبتنا: «كيف كان المحاور العراقي في الفضائيات؟ هل تعاطف الناس معه؟» بصراحة أجبته: «الناس متعاطفون مع الألم العراقي سلفاً». (بالمناسبة، أيُّ بُكرٍ للألم العراقي، تصريحاً أو تلميحاً، يُخرج العراقيين الذين التقيناهم ويجعلهم يصمتون صمتاً عميقاً. أهي عزّة العزيز إذ يخجل؟ أم هو مركّبٌ نفسيّ كوئنته العزلة والحصار؟) «لكن»، قلت، «لم نشهد أيّ محاور أعجب الناس سوى بعض الأساتذة الجامعيين الذين بدأت الفضائيات تستضيفهم في الشهر الأخير. بصراحة كان المحاور العراقي دوماً محصوراً في خانة الخطاب الرسمي دون قدرات شخصية، دون ملاححة كلام، دون سخريّة محببة. لغته ناشفة. لغة من خشب.» «حتّى الهاشمي»، سألونا. الهاشمي، كما أظن، هو

أحد مستشاري الرئيس. «حتّى الهاشمي»، أجبته.

حدثنا حميد سعيد عن صداقته لصباح فخري «أبو محمد» بطريقة فيها الكثير من الحنين والحب. حدثنا عن سوق الحميدية، وعن أماكن لا أعرفها. كثيرٌ من العراقيين يحدثونك عن أماكن في دمشق لا تخبرها أنت السوري. سألتني لطفية الدليمي عن جبل العشاق قرب دمشق، أما زال...؟! ولما سألت رفقاء السفر ما إذا كانوا يعرفون موقع جبل العشاق لم أجد من يعرفه. «حدثنا عن بوظة بكداش. عن الاستراحات بين دمشق وحلب. عن معرّة النعمان.» وعندما عاد النقاش إلى نوع من السياسة كان مدخله لقاءً رئيس اتحاد كتّاب العراق برئيس اتحاد سورية والعرب علي عقلة عرسان، أطلقتُ أنا دعابةً ليست خاليةً من خبث: «أتمنى أن أعلم لماذا تتقاتلون أنتم البعثيين، ولماذا تتصالحون؟» هنا علّق حميد سعيد بما يعني: صعب. صعب جداً. إنّها حالة من الرسوخ في العلم!

أهدينا لوحتان. فتحت هديتي المغلفة ما إن اختليت بنفسي، فوجدتها لوحةً تشكيليةً بالألوان الزيتية تُمثلُ أمّاً تحمل طفلها في زقاق ذي طابع عراقي تتكوم بيوته مزدحمةً وتتناوق شرفاته الخشبيةً بفضول. ولأني ممتنٌ وواجبي يفرض عليّ شكرَ مضيفينا وشكرَ الشاعر حميد سعيد مُقدّم الهدية والمبادر إلى إشعارنا بأننا محبوبون ومرحبٌ بنا في بلدٍ كريمٍ رغم ظروفه، فقد



بادرت فور وصولي إلى إرسال رسالتين بالبريد الإلكتروني. فجاءني الرد من الملقم بسرعة إطلاق الرصاص (أمن المصادفة تسميته بالملقم؟): «العناوين التالية احتوت خطأً دائمة قاتلة...». The following addresses had permanent fatal errors: سأحاول مرات ومرات إرسال الرسالتين، لكنّ الجواب كان هو ذاته. أدركتُ أنّ الرسالتين لن تصلا وأنّ ليس للكولونيل من يكايتيه. كولونيل ماركيز أمضى عقوداً ينتظر رسالة لم تصل أبداً، ونحن بعد قطعة ثلاثة عقود ليس لنا أن نتراسل أبداً. كولونيل ماركيز يعيش في اللغة، أمّا نحن فنعيش في الواقع. هاتوا أروني فنتازيا أعلى من هذه الفنتازيا.

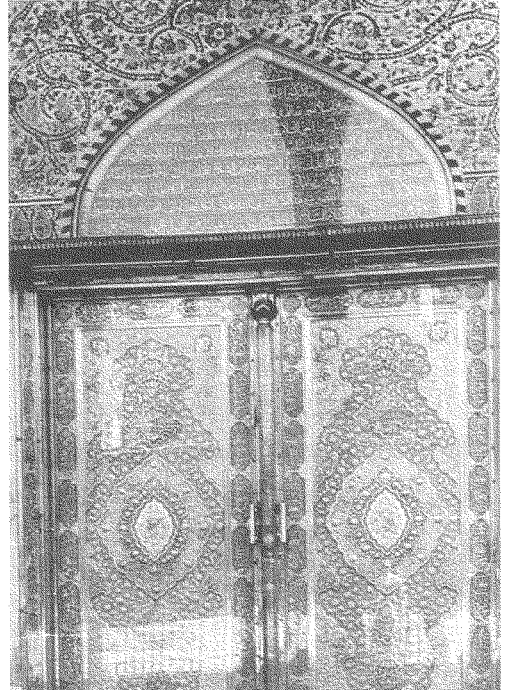
\*\*\*

صباح يوم الخميس لاحظناهم في بهو الفندق يسألون عن زميلين من زملائنا بصفتهم من أقاربهم. كثيرون منا حكّهم غدة المداعبة الساخرة، فراحوا يعلّقون على قرابات تُظهر هكذا فجأة بعد دهر من التخلّي والصمت، مُستعيرين من عادل إمام قولته الطريفة: «دا ربنا لهُ حاجات!» من «حاجات ربنا» أن يجد المرء نفسه محاطاً باحتفاء كهذا. أنا شخصياً، عذراً، توقّعت أن تكون الشخصية العراقية ذات طابع جلف وصلب ومعزول، فإذا بي أرى بشراً دمثين قوالين كراماً.

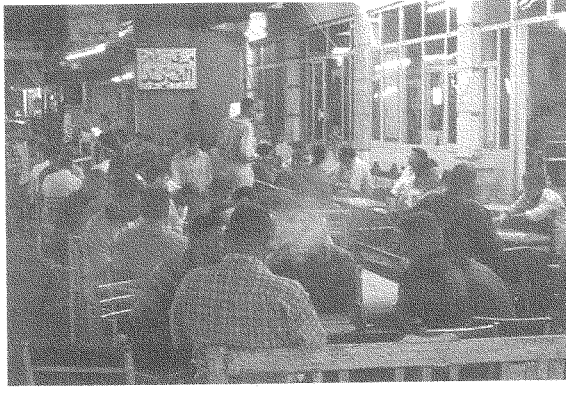
انطلقنا نحو كربلاء برفقة مستضيفينا الجدد الذين اقتحموا علينا فندق الرشيد بحثاً عن «أقارب» سمعوا أنّهم يحضرون مؤتمراً طبياً! مررنا بساحة الاحتفالات الكبرى من تحت السيوف الهائلين المتقاطعين، وبُنصب الشهداء ذي التكوين الغرائبي الفخم، وبقبة مزينة بشغل معماري فريد حسبناها لأحد الأولياء فإذا بها قبر أحمد ميشيل عفلق «أبو محمد» مؤسس حزب البعث! نخيل، غابات من نخيل، والطريق ازدحام. دلائل كثيرة على أن العراق غنيّ لكنّه معوّق. قال أحد مستضيفينا وهو معلّم متقاعد: «إحدى مشاكلنا، نحن العراقيين، تكمن في أننا اعتمدنا على الدولة، والدولة مدّت في حضانتها مسرورة في أن تكون هي ربّ العائلة الذي لا يخرج عن طوعه أحد مادام جيبه عامراً بالمال. في أواخر السبعينيات كان راتبني ١٢٠٠ دولار...»

ربّما تفاجأون أن كلّ شيء في العراق يُحسب بالدولار. حتى صاحب المحل الصغير يبيع بالدولار. طبعا يمكنك الدفع بالليرة السورية، لكن بعد تحويلة ذهبية مروراً بالدولار. تجد البائع وقد غرز عينه في الفضاء، أو يتناول الآلة الحاسبة ويبدأ بالضغط على الأزرار، يلفظ بعدها السعر بالليرة مهتدياً بالدولار. في منتصف المسافة إلى كربلاء رأينا وزير الصناعة السوريّة الزائر ينزل من سيارته ليشتري برتقالاً. أوقفنا الحافلة لنرى كيف يشتري وزير. ولما رأينا أنه، مثل كل الناس، حمل كيساً من البلاستيك عائداً إلى سيارته، رحنا نتمازح عن قيمة وزير لا تسير في ركبه «مرافقة»، لأفرادها طول فارغ ونظارات سود.

ساحة كبيرة تحيط بمقامي العباس والحسين. حول الساحة فنادق من طابوق ذات طابقين، لا أكثر. ربما كانت الفكرة المعماريّة وراء تواضعها في الارتفاع أن لا تلعو على ذنك المقامين. المقامان من الخارج متشابهان، وهما كذلك من الداخل باستثناء بعض التفاصيل. الجدران الخارجية مكسوّة بالقيشاني الذي يعلّب عليه اللون الأزرق. أليس من الغرابة حقاً أن لا يرد إلى ذهن المعماريين لون الدم مادامت مأساة آل البيت مضمخة بالدم؟ في الداخل تتبطن الجدران والقباب والسقوف بماتاهات من مرايا توحى بسما من نور يتلألأ، لكنّها سماء متشظية دونما وحدة. نخلع أذنيتنا في الباحة. نسير حفاة في الموكب المتزاحم. يدافعنا موكب جنازة يطوف به حاملوه في أنحاء المقام. يُقال إن الميت يعي تلك الجولة التي يخصّه بها أحباؤه لتوديع الدنيا. نطوف بقبر العباس في المقام الأول، وبقبر الحسين في المقام الثاني. أشده وأنا أرى نساء يتعلّقن بمطرقة البوابة الضخمة ويقرعن بوهن ولكنّ بإلحاح، وكأنّهن يزرّن بيتاً خاصاً لا موقعاً يزدحم بالآلاف مؤلفة. أسمع همساً كأنه مناجاة للنفس: «يا حسين...» عجائز يتحسّسن خشب الأبواب والجدران بخشية وحنان كما لو أنّهن يتحسّسن جزءاً حياً من ميت مضت عليه دهور ودهور. نقف مع الواقفين وأيديهم مشرعة في الفضاء استقبالاً لرحمة تنزل من السماء. نقرأ دعاء في نصّ معلّق على الجدار، ونلفظ مثلما يلفظون «أميييين». إنه شباط، ومع ذلك نتعرق ونتفرق إلى النفس. الصدور مزحومة، والأقدام تتماس وتطأ بعضها البعض. نخرج إلى الهواء. نلتقط صوراً. نبحت عن عباة ثمينة نجد ولا نشترى، مؤجّلين الشراء، وكأننا سنمضي في العراق دهرًا، ثم نندم في كلّ مرّة ونقول: «ليتنا اشترينا!»



لم يعد من الممكن زيارة النجف: فالوقت تداركنا، ومضيفونا يُبدون قلقاً يحاولون كتمانهم. ونحن نبدي تردداً بين حرجنا وما سنندم عليه من تفويت فرصة زيارة النجف. أخيراً نقرّر أن نستسلم. على الطريق نفسه نحو بغداد



نمرَ بجسر المسيب الذي تذكّره الأغنية العراقية الشهيرة. ننحرف عن الطريق العام ونوغل في ريف قضاء «المحاويل» لا بؤس في ما نراه. ريف جميل محضون بغابات نخيل. تستثيرني مدرسة، أبوابها منتظمة، جدرانها مستقيمة نظيفة، دهانها حديث، وباحتها تبدو من أعلى الطريق مرصوفة وأنيقة. أستذكر فيلماً بثته قناة الجزيرة يُظهر بؤساً منقطع النظير لتلاميذ عراقيين بثياب عتيقة. لا مقاعد. لا زجاج في النوافذ. والسبورة لوح خشبي ماذر. أذكر دموعي التي داريتها عن عائلتي، لأفاجأ بعد لحظات أنني لست الوحيد. كنا جميعاً ندري دموعنا كأننا خجلون مما نرى، كأننا مسؤولون عما حصل لأولئك الأطفال. سألت: «أكل المدارس هكذا؟!» انتبه المعلم المتقاعد إلى ما

وراء سؤالتي: «أكو مدارس ومدارس... مرّت علينا ثلاث سنوات ربك لا يُعدها على بشر! سنوات الـ ٩٤ و٩٥ و٩٦.» مثل هذا الكلام كنا قد سمعناه من عديدين. حميد سعيد قال في السهرة مقتبساً عنوان المخرج الجزائري الأخضر حامينا: «إنها سنوات الجمر. الناس باعوا كل شيء». باعوا حتى الأبواب الداخلية في بيوتهم، ولم يتبق سوى الأبواب الخارجية. «خطر في بالي حينذاك تشبيه البيت العراقي بالوطن العراقي: فهذا لم يعد، هو الآخر، يمتلك سوى باب خارجي يُغلقه على نفسه. ولكنني خشيت سوء الفهم، فأحجمت. وأكلم سعيد: «أحد أصدقائي ذكر لي أنه عاش تلك السنوات بفضل سوء تدبير امرأته. كم كنت أتضايق منها، أيام العز، أيام كانت البضائع الموجودة في بغداد لا توجد في غيرها. كانت متلفة تشتري من الصيني والتحف والسجاجيد ما لا يلزم. لم تكن نعلم أن الدهر يخبئ تحت عبائه ما حصل. غير أن سوء تدبير المرأة كان في تلك السنوات هو خشية النجاة. سوء تدبيرها انقلب بيد القدر إلى أفضل تدبير.» أظن أن أحداً لا يمكنه تقدير مدى الألم في كلام كهذا إن لم يخبر «العنجهية» التي كان العراقي يتمتع بها.

وصلنا إلى بيت طرفي تمتد خلفه غابة نخيل. كانوا ينتظروننا. أنشأ أحدهم ترحيباً بطريقة «الهوسة» العراقية كتلك التي نراها على التلفزيون: كلامٌ موزون على إيقاع قفزات متوالية. الذراع التي تمسك بالعباءة مشرعة نحو الأعلى، والركبتان تنتشيان، ثم يقفز الجسد مرّات ومرّات. مصافحة بالأيدي وثلاث قبيل. سلامات... سلامات لا تنتهي. مازحت مستقبلينا بعد أن هدا الصخب أن ليس كل الضيوف من أقربائهم. ردوا جمعاً مستنكرين بدماثة: «كل الإسلام أعمام!» أكان كل المسلمين أعماماً أيام كانت الطائرات تُقصف؟! مضيفونا من «الهنادي»، وهي قبيلة ربما لم يكن لأفرادها أصل دموي واحد، بذرها جيش إبراهيم باشا المصري في حربه مع الأتراك في شمال سورية ووسطها. أصولهم من بلدة هنادي المصرية. من تاريخ هذه البلدة، وفق الجبرتي، أن أهلها كانوا منبغاً للجيش المصري. أمّا قصة وجودهم في العراق فلها رواية أخرى غير الحروب، وتتصل بالتجارة والسعي وراء الرزق. ألا تلخص روايتهم قصة الجولان في بلاد العرب والمسلمين: إمّا غزو، وإمّا تجارة ويحث عن العيش؟

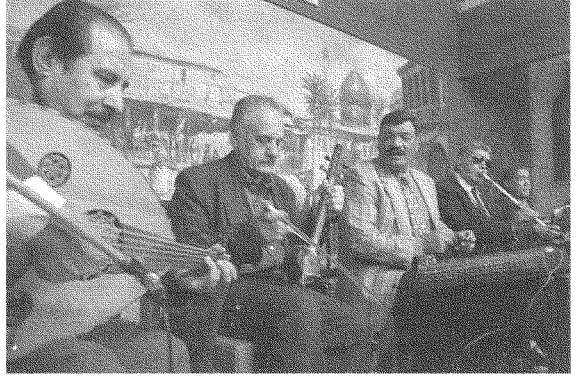
على العشب مدّ السجاد، والشهر شباط! والحديث يتناول بحرج أسماء الأقرباء في سورية، إذ من ضمن أن من يُسأل عنه مازال حياً بعد كل هذه السنين؟! وفعلاً كان بعض من سألوا عنهم أمواتاً. هنا الناس شيعة، لكننا لم نلمس لا تصریحاً ولا تلميحاً ما يوحي بصراع حاد. سنذكر بعد قليل، وبطرائق تُشبه الطرائف، أن التشيع والتسنن هنا يتبعان الجغرافيا في بعض جوانبه. «أنت من الوسط، وانتقلت إلى الجنوب، والجنوب شيعة، فلم لا تتشيع؟!» يمزحون أن العائلة الفلانية تركت «دينها» ما إن ساعدها الناس في إنزال الأغراض من السيارة. لم يحن موعد أذان العصر حتى كانوا يصلون مثلما نصلي!

العراق ذو طابع شيعي في العموم. جلّ المظاهر وجلّ الكلام يوحي أنك بين أناس يقدسون الحسين الشهيد. والعراق، دون الشمال الذي لم نره، ذو طابع عربي محض: لا لكّنة، لا كناية، لا استعارة، لا إحالة على ما هو غير عربي. عرب قبائليون حتى العظم. قليلة هي الكلمات ذات الخلفية الثقافية والسياسية التي أوحى باستنكار ما من هذا الوضع القبلي. همس مهندس مقاول في أذني رداً على سؤالتي: «لِمَ لم تأخذ المدن العراقية طابعاً حضرياً كما هو الحال لسكان دمشق وحلب والقاهرة الأصليين؟» قائلاً: «تلك هي قصة السلطة، لا سلطتنا الحالية فقط وإنما السلطات التي سبقتها أيضاً. في بغداد تجد نواة حضرياً لكنها مجبرة على الانتماء إلى قبيلة ما. ويعود جزء آخر من المشكلة إلى الجيش الإسلامي الأول الذي دخل العراق في كتاب، كل كتيبة تحت راية قبيلتها.» الشمس تميل إلى ما بعد العصر عندما انتهينا من غدائنا المكون، كما هي العادة من غداء يكفي للواء في الجيش. وبإيمان مُغلظة حملونا أكياس تمرّ ستسبب لنا ارتباكاً لأنها ستأخذ مكاناً كبيراً بين ازدحام أغراضنا.



على طريق العودة رحنا نتأمل ونسأل عن كل شيء. أشاروا إلى أرض خاوية واسعة بين غابات النخيل: هنا معسكر للجيش ظلّت الطائرات تقصفه كل يوم. تطف الطائرات هناك، مشيرين إلى الأفق فوق غابة نخيل، وتبدأ بالقصف. كنا نرى الصواريخ والقذائف وتتابها إلى أن تنفجر. «تأتي الطائرات من جزيرة العرب»، تبرّ المعلم بلهجة تبخيس وسخرية. هذا الطريق هو ذاته الطريق الذاهب

إلى الجنوب، إلى البصرة. أشرنا إلى ما حصل في الجنوب، فلاقينا صمًا مطبقًا. أخوف هو ذاك الصمت، أم طريقة للنسيان؟ فيما بعد، في طريق عودتنا إلى الوطن، سيصعد معنا رجلٌ من أحد الحواجز. كان الرجل من قبل جندياً، وسيقصر علينا قصصاً يقف لها شعرُ الرأس. في مرحلة من حديثه لفظ: «هربت في الصحراء لا أدري إلى أين.» قاطعناه ممانحين: «باطل! هربت؟» بدا عليه الاستنكار الجدي: «يا بااااا... هذا موت! موت! مو مزح!... هاذولا الأمريكان! تنضرب وما تعرف منين تنضرب!» وكالعادة رحنا نناقش، كما لو أننا في مؤتمر، تعنت الكويت وذريعتها في الأسرى.



«يا أخي، الأوروبيون تحاربوا حربيين عالميتين. وحدها الحرب الثانية أماتت عشرين مليوناً، ومع ذلك نسوا. لم لا ينسى الكويتيون؟» فاجأنا السائق العراقي الذي كان قد تسلّم مقود السيارة: «لن ينسوا. ما فعلناه بهم لا ينسى. وما يفعلونه الآن بيد الأمريكان لن ننساه. لن ينسوا ولن ننسى. أرايتم مسرحية حسين عبد الرضا؟ أنا رأيتها في الأردن. كيف لعراقي أن ينسى صورته في ذلك الجندي العراقي الذي تصوّره المسرحية لا يفرق بين السجادة والمنشفة، ويتمرغ مثل قردٍ بخديه على السجادة حاسداً الكويتيين على مناشفهم؟ لماذا يصورون رئيسنا، الله يحفظه، بهذه الصورة؟ ألا يحسبون حساب المستقبل؟ ألا يخافون؟!»

كل العراقيين الذين التقيناهم يذكرون اسم رئيسهم مصحوباً بهذه الجملة «الله يحفظه»، لكننا سنلمس منهم جميعهم أيضاً نقداً دقيقاً خفياً. «ما كان وارداً مثل هذا الظل من النقد قبل سنتين أو ثلاث... كان الصمت سيّداً»، قال أحد المثقفين العراقيين. ولما سألت ما الذي استجدّ، أجاب بصراحة: «أولاً لأنّ وجوهنا، سلطةً وشعباً، إلى الحائط. يعني لا بدّ من فسخ المجال لنوع من النقد. وثانياً لأنّ السياسة هكذا. كل العراقيين يتمنون تغييراً ما. لكنّ القبض على الجمر يحرق ويشوش.»



في نادي الصيد كان العشاء الأخير. النادي هنا، كما المنشآت في بغداد، بُنيّة ضخمة وساحات واسعة. المدعوون ينوفون على الثلاثمائة. والطعام زيادةً كريمةً متلافةً كما هي العادة. عدد النساء قليلٌ منفرداً عن زملائي جلسنا مع عدد من الشبان. بعد صمتٍ سببه وجودٌ غريب، هو أنا، يتلفت في كل الاتجاهات كمن أضع شيئاً، قدّمت نفسي تحت صخب الموسيقى وصوت المغني. كانوا جميعاً أطباء في الاختصاص. أحببت أن أكسر جليد الصمت بسؤال صادم: «لماذا تغيب المرأة العراقية؟ لم نر الكثيرات في الشوارع ولا في الأماكن العامة. وحده نادي الرماية الذي سبق أن تعشّينا به لاحظنا فيه عدداً كبيراً منهن. أستم في الإعلام تدعونهنّ الماجدات؟ فإين الماجدات؟» تبسم أحد الأطباء الشبان ساخراً: «أتريد حضرتك أن تستعرض ماجداتنا؟ ماجداتنا للبيوت. فما حال ماجداتكم أنتم؟» جارت السخرية المحببة: «ماجداتنا يشتغلن شغلين. تجدهنّ في الشوارع وتجدهنّ في البيوت.» وعندما آل الحديث إلى الجدّ أجمع الأطباء الشبان أن الأسرة العراقية محافظة بطبعها، وأن النساء عادةً لا يخرجن إلا مع رجل أو في جماعات «لكنهنّ على أي حال يعملن في كل المجالات. ولو أنك زرت الجامعة لرأيت أن عددهن لا يستهان به.» لكنّ ما رأيناه في نادي الرماية مختلف. قلت. نساء. فتيات جميلات على آخر طرن، فلمّ لم نر مظاهر كهذه في الشارع؟ تلك قصة أخرى سيتهرّب منها الشبان، لكنهم سيُلمحون إلى أن اللواتي رأيناهنّ هناك من عليّة القوم... إنه المال!

كنّا في نادي الرماية قد لاحظنا فعلاً مظاهر غنى ربما كان فاحشاً. ولأننا علمنا مدى حب العراقيين للشاميين رحنا نتحدّث مع الفتيات بروح شبابية، رغم أن معظمنا كان في سنّ الكهولة. واحدة منهنّ كانت جميلةً جداً أخذنا: سمرة صافية، عياناً نباحتان، وجسدٌ عارضة أزياء. خاطبناها مرّات في معرض حديثي بـ «يا حلوة» موارباً الكلام بين العفوية والتعمد. وعندما التقطت الأمر بإحساس الأنثى راحت تقاطعني مقلدةً لهجةً سوريةً ما: «صحّ عمّو... شكراً عمّو.» أخرجت ورحت أردد: «تعيّرني بالشيب وهو...» لكنّ أسطوانتها المشروخة ظلّت تردّد: «عمو... عمّو... يلعن أم أكبر عمّ في الدنيا!



صباح الأحد نزلنا إلى البهو في الخامسة استعداداً للسفر. هنا ضاعت روح الألفة: بين استنكار من حساب الشاي والقهوة والكوي والغسيل، ونقص في دماثة عمال الفندق. أين كنّا وأين أصبحنا! بالأمس فقط كانت عواطفنا تفيض إلى مستويات أعلى من المال: واليوم نسينا؟! أعود إلى بغداد ثانيةً وهي في صحوها وأمنها وثرائها المكبل بالحصار، أم أنّ الصواريخ ستُمطر قريباً دماً وتفتيتاً لبلد التاريخ والجغرافيا المرفقة؟ أعود قريباً، أم أنّ قطيعةً دهريةً أخرى بانتظارنا؟ أينفك العراقيون قريباً من أسر الدول، أم أنّ القوة السابية لم تترتب بعد؟

الرقّة (سوريا) - شباط ٢٠٠٢